(رسالة التطور) قاصرة على مصر وحدها بل تتناول بلاداً ارقى مدنية من بلادنا بكثير . ففى أمريكا مثلا تقوم العقبات فى سبيل تبليغ هذه الرسالة حيث قد حرمت بعض ولاياتها تلقينها فى مدارسها وجامعاتها (وان كانت المحكمة العليا قد قضت ببطلان حكم الولاية فى هذا الشان) وكذلك العامة فى كل مكان لاتكاد تقيم وزناً لها ورغم كل ذلك فالدلائل كلها تدل على ان البشر لابد ان يعتنقوا هذه الرسالة فى زمن قصير : قلنا ان رسالة التطور الى شعوب الارض قد حملها السابقون على داروين وباشوفن ومورغان والاخير اول من ادخل الترتيب المنطقى فى تاريخ البشرية الاولى أى تاريخ العصور التى تقدمت التاريخ فقد قسمه الى ثلاثة عصور (عصر الهمجية) و (عصر البربرية) و (عصر المدنية)

الفصل الحادى عشر

التدين والتأليف

كانت الاديان والآلهة فى البداية شيئا غامضا أو متصلا بالاشباح ومظاهر الطبيعة ثم أخذت تتحدد وتتعين وتتعدد فكانت عبادة الشمس ديانة قدماء المصريين المعروفة ، وديانة الهندوس والسكويفوشية والارواح والآلهة ثم ديانة اليهود المتكلمين بالعبرية

وذلك حوالي ١٤٠٠ ق. م. وكانت ديانتهم مشوشة إلى ان ظهرت التوراة .

أما الكتاب المقدس فيشمل العهد القديم « التوراة » والعهد الجديد « الأنجيل » . والتوراة، في معناها الضيق، تطلق على الاسفار الخمسة الاولي من العهد القديم الذي ينسب الي النبي « موسى » وهي سفر التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية . أما « التلمود » فهو مجموع التعاليم الادبية والدينية في سنة ٤٠٠ في جزئين : تلمود اوروشليم ، وتلمود بابل . غير أن اليهود القرائيين ينكرون «التلمود» وقد جمع بين فيما القرنين الميلاديين الرابع والسادس ، وينقسم قسمين «مشنا» وهي أحكام شرعية مقاسة علي « التوراة » ، و « جمارا »

ديانة الايرانيين

كان الفرس «الايرانيون» القدماء يعبدون الاوثان الي أن ظهر في تاريخ يتأرجح بين القرن العاشر والخامس ق.م بينهم « زورادشت »، وعندهم أنه قد عرج الى السماء وتلقي عن أهورامزدا «الله» ـ الكتاب المقدس « الأفستا » . وعند بعض مفسريه أنه يقول بان رب الكون واحد لا شريك له ، وان يكن في الكون خير وشر يتنافسان

ديانة اليونانيين

أوردت الاساطير اليونانية القديمة أسماء آلهة اقيمت لها التماثيل وسكنت جبل أولمبوس ، ومن هذه الآلهة « أبولو » إله الشمس ، و « ڤينوس » إله الجمال ، و « جوبتر » إله المشتري و « وزيوس » الخالد إله النهار والضوء وسيد النظام ورب الارباب

وزوجه «هيرا» و «بلوتو» إله جهنم ،«وميركارى» إله عطارد،و «هفيستوس» إله الحدادين،و«افروديت» إلهة الجمال، و « آثينا » إلهة الحكمة،و« بوزيدون» إله البحر ، و «تيميس» إلهة الشريعة ، و «أبنوميا» إلهة الحكم الصالح،وآلهات « الپارك » : الاعمار الثلاثة ، و «هادويس » سيد العالم الآخر ، و «ديانا » إلهة الصيد .

وآلهة اليونان تماثل الانسان فهي تتزوج وتغضب وتفرح ، وهي ذات علاقة وثيقة بالانسان والطبيعة ،ويتوزع بينها العمل والاختصاص!

الدين والفلسفة

وعند « سعيد زايد » خريج كلية الآداب في جامعة فؤاد الاول في القاهرة أن هناك صلة متينة بين الدين والفلسفة وأنه إذا كان الدين في أول أمره يعتمد على مخاطبة القلب قبل العقل ، إلا أن المتدينين لا يلبثون أن يواجهوا مشكلات لاهوتية لا تحل إلا بنور العقل ، والسبيل إلى ذلك الفلسفة ، فبعد أن استقرت الدعوة الالهية واستتبت الامور واتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، ودخلت أمم كثيرة متمدينة تحت لواء الاسلام ، اتسع الوقت للمناقشة والجدل ، وواجه المسلمون أقواماً درسوا الفلسفة والمنطق، لا يكفيهم في الاقناع أن يقال لهم : قال الله تعالى كذا ، أو قال الرسول صلى الله عليه وسلم كيت ، لا سيما والله تعالي ورسوله يدعوهم إلى تحكيم العقل فيما يدعون اليه . إزاء هذه الحالة لم ير المسلمون بداً من الاقبال علي دراسة الفلسفة والمنطق ، ومن أن يطلبوا حكم العقل في أمور الدين ، فنشأت فلسفة اسلامية ترمي الى التوفيق بين العقل والنقل ، واصطنع منهج التأويل .

فى مسألة الوحدة نجد ابن سينا ، الذى عنى بهذه المسألة عناية واضحة تبدو

المتأمل في مؤلفاته العديدة ، ولا سيما في مباحثه الميتافيزيقية « أي المتصلة بما بعد الطبيعة » في واجب الوجود الذى لا يحتاج فى وجوده إلى غير ذاته ، فهو علة ذاته وعلة كل الممكنات الاخرى ـ نجد المعلم الثالث « ابن سينا » يحاول من ناحيته أن يثبت بالدليل النقلي ما قد أثبته عن طريق الاستدلال العقلى من وحدانية واجب الوجود ، غير أنه لا يتيسر له ذلك تواً دون الالتجاء الي تأويل بعض النصوص القرآنية التى وردت فيها آيات تدلل علي أن الله واحد ، ولا أظن أن المجال يتيح لنا عرض صور مختلفة لما لجأ اليه ابن سينا من التأويل في كل ما ورد من الآيات فيما يختص بالوحدانية ، وانما يكفى أن نشير الي تأويلاته في تفسير سورة الاخلاص ، متخذين هذا التأويل أنموذجاً يوقفنا على مدى ما ذهب اليه المعلم الثالث في تفسيره وتأويله .

« قل هو الله أحد » يعود بنا ابن سينا فى تفسيره لهذه الآية إلي فلسفته الميتافيزيقية فيقول « الهو المطلق هو الذي لا تكون هويته موقوفة على غيره » أو بمعني آخر هو أن وجوده متوقف على ماهيته وذاته ، على نقيض الممكن الذي يتوقف وجوده على غيره ، واذا كان وجود « الهو » المطلق متوقفاً على ذاته ، كان واجب الوجود ، لأن وجوده هو عين الذات إذ ، أن اقتران « الهو » بالله يكشف عن أن المقصود « بالهو » هو الهوية الالهية .

وهذا بحق لازم من لوازم تعريف الالوهية بالوحدانية ، لكمال بساطتها وغاية وحدتها . ويعلق ابن سينا على ذكر اللوازم القريبة « للهو هو » بان ذلك تعريف حقيقي ، لان التعريف الحقيقي هو الذى يذكر فيه اللازم القريب للشيء الذى يقتضيه الشيء لذاته ، لا لغيره ، لانه اذا ذكر فيه اللازم البعيد لا نستطيع أن نقرر أن هذا اللازم معلول للشيء حقيقة ، بل كل ما نستطيع أن نقرره أنه

قد يكون معلولا لمعلوله. ثم يتطرق ابن سينا فى تفسيره الي ان يفرض سؤالا قد يمكن أن يوجه اليه، وهو أن ماهيته تعالى ، اذا كان لا يمكن لغيره معرفتها الا بوساطة صفات السلوب والاضافات ، فلم لم يذكر ذلك واقتصر على ذكر اللوازم ويجيب علي هذا السؤال بان الله بوصفه عاقلا ومعقولا، واحد ليس له مقومات، بل انه وحدة مجردة ، وبساطة محضة لا كثرة فيه ، ولا اثنينية هناك أصلا ، وعقله لذاته ، ولا يعقل من ذاته إلا الهوية المحضة المجردة عن الكثرة ، ولذا عرفها بلوازمها القريبة ، وتأكيده بأنه واحد مبالغة في الوحدة ، لعدم وجود التشكك في أنه واحد من جميع الوجوه ، وأنه منزه عن الكثرة سواء أكانت كثرة معنوية كالاجناس والفصول ، أم كثرة مقومات كالمادة والصورة والاعراض .

ثم ان ابن سينا فى تفسيره «الصمد» يقرر أن لهذه الكلمة تفسيرين أولهما الذى لا جوف له ، وثانيهما السيد . ثم يؤول التفسير الاول بان الصمد صفة سلوب تنفي الماهية، لان كل ما له ماهية له جوف وباطن ، وما لا بطن له وهو موجود لا اعتبار لذاته إلا بالوجود ، والذي لا اعتبار له الا بالوجود يكون غير قابل للعدم ، فالشيء من حيث هو موجود ، يكون غير قابل للعدم فالصمد يكون بهذا المعني واجب الوجود من جميع الوجوه .

أما التفسير الثاني لكلمة « الصمد » بوصفه سيداً فيؤولها ابن سينا على أن المقصود أنه سيد للكل ، أى مبدأ الوجود وعليه الاولي ..

ويؤول ابن سينا قوله: « لم يلد ولم يولد » بأنه هو وحده ، وأنه وان كان مصدراً للوجود فانه لا يفيض بوجود مثله ، حتى يكون له ولد، ولما كان وجوده من ذاته بهويته لم يكن صادراً هو عن غير ذاته . واذا كان الامر كذلك أى

اذا كان واجب الوجود ماهيته هويته ، لا يتولد عن غيره ولا يتولد عنه شبيه له لم يكن هناك فى الوجود ما يكافئه ويساويه فى قوة الوجود ، ولذلك قال تعالي « ولم يكن له كفواً أحد » .

ثم يستخلص من هذه السورة أن الله بعدم ذكره المقومات فى تعريفه «الله أحد» وذكر اللوازم ، قد دل على أنه في ذاته بسيط ليس له ما يقومه ، واحد ليس له شريك في هذه الوحدانية . ثم انه بارداف الواحدية بالالوهية ، قد رتب الاحدية على الالهية ولم يرتب الالهية على الاحدية ، لان الالوهية هى افتقار الكل به على الالهية اليه . ومن كانت هذه صفاته كان واحداً مطلقاً .

ويذهب اسماعيل مظهر فى كتاب « ملتقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء » الى أنه قد تصدى للنظر في الدين فحول من مفكرى القرن الماضي ، لو اطلعت علي التعاريف التى وضعوها للدين لأيقنت بان الدين لا يزال كما عهدناه فى الانسان الاول ، ظاهرة مرتكزة على الاعتقاد ، ظاهرة تطورت الفكرة فيها بتطور عقلية الانسان فبلغت حداً عرفنا عنده أن الدين عقيدة تتلخص فى أمرين اثنين ، لو جمع بينهما الفرد كملت ذاتيته بصفته فرداً صالحاً من جماعة تضرب في أصول الارتقاء بسهم يعيد

الامر الاول : ـ الاعتقاد بوجود قوة مدبرة حكيمة خالقة سرمدية لا تدرك حقيقتها العقول البشرية الا بقدر ما تستطيع أن تبلغ من ادراك لقوة تدبر عالماً ، وقف الفكر أمامه معترفا بالعجز

الامر الثاني : ـ أن الدين شريعة أدبية ، صلة الفرد بها حاجة للمجموع تؤدى به الي أبعد غاية من الارتقاء المدنى

واليك كلمات استجمعها العلامة « بنيامين كيد » لعديد من كبار المفكرين من

معاصريه ومن تقدمهم فى عصور المدنية نأتي عليها لنظهر الباحث الخبير على آخر حالات تشكلت فيها العقلية الفردية فى ادراكها لحقيقة الدين :

١ ـ الدين معرفة الله والتشبه به « سنيك » ـ ٢ ـ ينحصر الدين في اعتقادنا بان كل واجباتنا أوامر الهية « كانت » ـ ٣ ـ ان الدين شرع أدبى ممسوس بالانفعال « ماتيو أونولد » ـ ٤ ـ الدين عبادة الانسانية « كونت » ـ ٥ ـ ان العاطفة الدينية يكونها الانفعال الهادىء مقروناً بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة « اسكندر باين » ـ ٦ ـ أن دين الانسانية هو المعبر عن أقصي حالة عقلية يعلل بها الكون ، هو المعني المجمل ، بل محصل ما يبلغ اليه ادراك الانسان ؛ من معرفته لحقيقة الاشياء « ادوارد كايرد » ـ ٧ ـ ان الدين حد المعرفة الذي تدركه النفس المحدودة المتحيرة ، من ماهيتها كنفس مطلقة غير متناهية « هيجل » ـ ٨ ـ الدين اجلال المثل الاعلى من الاخلاق ، ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة « هكسلي » ـ ٩ ـ ان ماهية الدين هي توجيه الانفعالات والرغبات بقوة وصدق عزيمة نحو تحقيق مثل أعلى نقتنع بأنه أقصي الجود والخير ، وأنه فوق كل الرغبات النفسية التى تسوقنا اليها الانانية « ميل » ـ ١٠ ـ ان الدين هو الشيء الذى يعتقد الانسان فى صحته اعتقاداً عملياً . هو الشيء الذى يحسه الانسان بقلبه ، ويأخذه علي أنه حقيقة واقعة فيما هو كائن من علاقاته المتعددة بهذا الكون المتعمق في الغموض ، الاصيل فى الاستغلاق ، وفيما يتصل بواجباته فى هذه الدنيا ، ونهاية هذه الحياة « كارليل » ـ ١١ ـ ان الدين فى أول درجاته ، وابان حالاته ، هو ما يمكن أن نصفه بانه عادة مقرونة بشغف دائم « صاحب كتاب الدين الطبيعى » ـ ١٢ ـ ان الدين اعتقاد في إله باق قديم ، أى أرادة قدسية ، وعقل قدسى يدبران الكون في حين أن علاقتهما بالنوع البشرى أدبية « دكتور مارتينو »

نشأة الاديان الكبرى

يقدر عدد سكان العالم بنحو ألفى مليون . أما قبل التاريخ فالعدد غير معروف. ويدين بالمسيحية ٣٤ ٪ من سكان العالم موزعين على مذاهبها هكذا: ٢ر١٦ فى المائة من الكاثوليك ، ٧ر١٠ ٪ من البروتستنتية، ١ر٧٪ من الارثوذكس أما « الكونفوشيوسية » فيدين بها ٢ ر ١٨ ٪ و «الاسلام» ٤ ر١٣ ٪ و« الهندوكية » ٨ ر ١٢ ٪ و « البوذية » ٤ر٨ ٪ و « اليهودية » ١ ٪ والباقون إما أنهم يعبدون الحيوان ، وإما موزعون بين مذاهب شتى يتعذر حصرها . أول الاديان الكبرى :البوذية ، فالهندوكية ، فالكونفوشيوسية ، وكلها من القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، فاليهودية، فالمسيحية ، فالاسلام

وقد نشأ الدين الاسلامى في شبه جزيرة العرب . أما المسيحية فقد نشأت بين بيت المقدس وروما . والكونفوشيوسية نشأت في الصين، والبوذية نشأت فى الهند .وكذلك نشأت في بادية الشام الديانة اليهودية التى يقرب عدد المتدينين من عشرين مليون نسمة

ويمكن أن يقال ان أكثر الديانات الكبرى نشأت فى بيئة صحراوية تتيح للانسان أن يتأمل الطبيعة الكبري ومن أجل هذا كان الشرق مهد الحضارات القديمة ، والاديان مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعي . ومن هنا سبق الشرق الغرب في ظهور الاديان كما سبقه الى نور الحضارة والعمران

هذا وقد عبر المسلمون أفريقية واستوطنوا الاندلس ولم يكن ثمة ما يمنع أن ينفذ الدين الاسلامي الى صميم أوربا غير أنهم انهزموا فى معركتى تور وبواتيه فاقام المسيحيون حاجزاً من جبال البرانس حال دون بلوغ الاسلام الي وسط أوربا وشمالها . ثم انه لما سارت جيوش العثمانيين غربا حتي أخضعت دول

البلقان ووقفت على أبواب ڤينا واتجهت شمالا إلى بولندا وروسيا كان من المرجح أن يشمل الاسلام جميع تلك البقاع الفسيحة جيلا بعد جيل ، ولكن العثمانيين لم يوفقوا في حروبهم دائماً بل لحقهم الضعف والتفكك. ولو انتصر الاندلسيون على شارل مارتل ووفق العثمانيون في فتوحهم لدانت شعوب أوروبا بالاسلام ، إذ ليس في أصوله وتعاليمه ما يجعله خاصاً بشعب دون شعب

الدين في القرآن الكريم

وقد آثرنا ـ اتماماً للفائدة ـ أن نورد هنا بعض الآيات القرآنية في هذا الموضوع :

جاء في سورة آل عمران « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون »

وجاء في آل عمران أيضاً :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين »

وجاء في سورة المائدة « الحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون »

وجاء في سورة الانعام « وهو الذي خلق السماوات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق وله الملك يوم ينفخ الصور، عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير »

وجاء فى هذه السورة أيضاً « وإذ قال ابراهيم لأبيه ازر ، أتتخذ أصناما آلهة اني أراك وقومك فى ضلال مبين »

شعوب لا دين لها

هناك شعوب لا دين لها فقد ذكر الفيلسوف هربرت سبنسر في الكتاب الرابع « أصول علم الاجتماع » أنه « توجد أدلة على أن الناس الذين فصلوا عن عالم الافكار المكتسبة مذ طفولتهم لسبب من الاسباب خلو من كل فكرة دينية فقد ذكر الدكتور كيتو الذى كان أصم فى مؤلفه « الحواس المفقودة » صفحة ٢٠٠ شهادة سيدة أمريكية ولدت صماء بكماء ولم تعلم بالطرق الصناعية الخاصة الا بعد وصولها الى سن الرشد . قالت — أو قل كتبت بطريقتها — إنه لم يخطر على بالها البتة ولا على بال أحد من الصم البكم الذين كانوا معها في دار واحدة أنه لا بد للعالم من خالق »

ثم يقول سبنسر . « فهذا كله يدل على أنه ليس بالشعوب المتمدينة ميل غريزى الى الدين. ولدينا براهين تؤيد صحة هذا الاستنتاج وتثبت أن فكرة الدين مفقودة أصلا بين كثير من الشعوب المتوحشة .فقد قدم السر جون لوبوك أمثلة على شعوب عديدة من هذا القبيل فى كتابيه « العصور السابقة للتاريخ » و « أصول المدنية »

وروي المستر هارستون في مجلة « فورتنيتلى ريفيو » بالمجلد التاسع عشر أنهم كانوا يعلمون رجلا من قبيلة الودى وهو فى السجن فاتضح أن ليس لديه أى الملم عن الخالق ولا عن الروح ولا عن عالم آخر

وقال القس صموئيل سمث الذى عاش ٢٨ سنة مع أناس صم بكم يصف أحدهم

«أنه ليس له أي المام بالخلود . وأنه لم يعثر على واحد من الصم البكم ممن لم يتعلموا عنده أية فكرة عن قوة عليا خلقت العالم وتدبره »

وذكر شون فورت في مؤلفه « أواسط أفريقيا » ما نصه: « ليس للبنجرس أدنى فكرة عن الخلود وهم يجهلون كل معتقد دينى . وأما الزولو ، وهم على شيء من الذكاء ، فأنهم برهان واضح على دعوانا هذه واليك الحديث ، الذى دار بين الرحالة « جاردنر » وأحدهم الذي يدعي تباى

جارد نر ـ هل لك المام بالسلطة التى خلقت العالم ؟ أنت ترى الشمس تشرق ثم تغرب والاشجار تنبت وتنمو فهل تعلم من يدبر كل هذا ؟

تباى ـ بعد أن سكت برهة ـ اننا نرى كل هذه الامور ولا نعلم من أين أتت ونعتقد أنها أتت من تلقاء نفسها . (راجع كتاب رحلة في بلاد الزولو بافريقيا للرحالة جارد نر ص ٧٢)

ويؤيد ما تقدم أيضاً الحديث الذي دار بين السر صموئيل بيكر وبين رئيس قبيلة من قبائل اللاتوك يدعي كوموردو واليك نصه :

السر صموئيل بيكر ـ هل لكم أي اعتقاد فى وجود آخر بعد الموت ؟

كوموردو ـ وجود آخر ! وكيف ذلك ؟ هل يمكن الميت أن يخرج من قبره إلا اذا نبش القبر وأخرج منه

بيكر ـ هل تظن أن الانسان مثل الحيوان يموت ثم يندثر أمره ؟

كوموردو ـ لا شك فى هذا . فان الثور أقوى من الانسان . ولكنه يموت مع أن عظامه أطول وأقوى من عظام الرجل التى تكسر بسهولة لانه ضعيف

بيكر ـ أليس الانسان أذكي من الثور ؟ أليس له عقل يدبر أعماله

كوموردو ـ توجد ثيران أذكي من بعض الرجال . فان الرجال يزرعون

الارض كي يحصلوا على قوتهم . أما الثور والحيوانات المتوحشة فانها تحصل على قوتها من غير زرع

بيكر ـ ألا تدري أنه يوجد فيك شيء آخر خلاف الجسم ؟ ألا تحلم ؟ ألا تذهب الي مسافات طويلة في أثناء نومك وجسمك لا ينتقل من مكانه ؟ فكيف تعلل ذلك ؟

كومورو باسماً ـ كيف تعلل أنت ذلك ؟ ان هذا الأمر يحصل لى كل ليلة ولكنى أجهل أسبابه

بيكر ـ أليس لديك أية فكرة عن الارواح التى هى أقوى من الانسان والحيوان ؟ أليس لك أقل خوف من عواقب الشر ودع عنك الخوف من العوامل الطبيعية ؟

كومورو ـ اني أخشى الفيلة وحيوانات أخرى حين أسير ليلا في الغابات ولكنى لا أخاف شيئاً آخر

بيكر ـ وعلي هذا فانت لا تعتقد فى شيء لا في أرواح الخير ولا فى أرواح الشر . وتظن أن كل شيء فيك من جسم وعقل يندثر بموتك . وأنك مثل بقية الحيوانات لا فرق بينك وبينها

كومورو ـ طبعـاً

بيكر ـ ولكن انظر الى حبة القمح كيف تعفن بعد أن تبذرها فى الارض ولكن لا تلبث قليلا حتى تنبت وتنمو منها سنبلة تأتي بحبات كثيرة فاذا كانت حبة القمح تحيا بعد موتها فمن باب أولي الانسان الذى هو أعظم المخلوقات

كومورو ـ لقد أدركت قصدك جيداً ولكن الحبة الاصلية تنعدم بعد الموت فهى تعفن كما يموت الانسان وينقضى امرها . أما السنبلة التى تنبت منها فليست الحبة الأصلية بل ثمرتها ونتيجتها . وهكذا حال الانسان فانى أموت ثم

أعفن وينقضى أمرى،ولكن نسلى ينمو مثل ثمرة الحبة . وقد لا يأتي الانسان بنسل كما تفنى الحبة ولا تأتي بثمر . فبعد الموت ينعدم الانسان كما تنعدم الحبة

وقال العلامة فيانا دي ليما الدكتور فى العلوم الطبيعية والعضو بالمجمع العلمى الفرنسوى فى كتابه «الانسان حسب مذهب التطور» صحيفة ١٧٤ وما بعدها ما يأتي :

ليست الفكرة الدينية من طبيعة النوع الانسانى، وليست هى صفة أصلية فيه تميزه عن سائر الاحياء وما هى إلا حالة مر عليها في أحد أطوار ارتقائه . وعلي كل حال فهى ليست لازمة له وليست عامة بين جميع الشعوب إذ توجد شعوب متأخرة لم تصل فى أطوار ارتقائها الي طور الافكار الدينية . وتوجد فئات كثيرة بين الشعوب المتمدينة فاقت هذا الطور ويزداد عددها كل يوم وتوجد شعوب أخرى خطت نحو المدنية خطوات تذكر ولم تمر مطلقاً بهذا الطور ـ طور التدين والافكار الدينية . وهذه الشعوب التي لا يدين أفرادها بدين ما يوجد منها فى أفريقيا وآسيا وأمبركا وأوستراليا . وذلك بشهادة الرحالين تومبسون ، وفان دير كامب ، والفس موفات، والرحالة الشهير لفنجستون ،والسر صموئيل بيكر «المتقدم ذكره»والدكتور مونات ، ودالتون وليختنشتين ، وقد ذكر كل من مورتز فجنر فى رسائله الثلاث والسر جون لوبك فى كتابيه «أصول المدنية» و « العصور السابقة للتاريخ» ـ المتقدم ذكرهما ـ عدداً كبيراً من الشعوب التى ليست لها أية عقيدة دينية

روي ليفنجستون الرحالة الكبير فى مجلة «الجمعية الانثروبولوجية الفرنسوية» ان عبادة الاصنام وكل نزعة دينية معدومة بين قبيلة بتشياتا وكثير من قبائل أفريقيا الوسطى . وقد أيد كل من، كازاليس والمبشر موفات قول ليفنجستون هذا . فقد قال موفات فى كتابه « عشرون سنة فى أفريقيا الجنوبية » ما يأتي:

« طالما سعيت جهدى فى كشف شيء من الافكار أو الاعتقادات الدينية عند السكان لأتدخل بينهم ،فلم أفلح لانه ليست لديهم أية فكرة من هذا القبيل»

وقال القس برون مثل هذا القول عن قبيلة الماكولو ببلاد الكفر باواسط أفريقيا .

وروي المبشر لنجستون هذه الرواية أيضاً عن قبيلة ميونجو فى أفريقيا

وروي الاب سلفادور مثل هذه الرواية أيضاً عن قبيلة أرافيرس وكثير غيرها من قبائل أوستراليا

وقال هذا القول أيضاً الرحالة ماكليهو مكلي عن سكان جزيرة سلمون وعن قبائل البابواس التى تعيش على سواحل غينيا الجديدة وعن قبائل خليج بافان .

ولم يعثر المبشر بيسجرت على أى أثر للاعتقاد بالله أو الاصنام أو الخلود أو أي معتقد آخر عند كثير من قبائل كاليفورنيا القديمة . وكذلك الحال عند سكان كاليدونيا الاصليين وقبائل الباشاجونى والفوجيان

وروى السر جون ايمرسون عن قبائل القيدا بجزيرة سيلان أنه ليس لهم المام باية عقيدة دينية من أى نوع . وكانوا يسألون السر جون ايمرسون: «أين هذا الأله وعلى أية شجرة أو على أية صخرة يعيش ؟ » وكذلك حال كثير من زنوج شبه جزيرة ملقا

وروى السر ميسنجر بردلى مثل هذا عن قبيلة من قبائل أوستراليا والرحالة ديتبورن عن قبائل البوشيمان والاسكيموبين وعن قبائل ليساوخاسياس التى تعيش فى شمال الهند .

وفى كتاب « المادة والقوة » للعلامة بخنر الالمانى صحيفة ٢٥١ من الترجمة الفرنسوية ما يأتي :

« اثبت كثير من العلماء والسائحين والتجار والمرسلين والمبشرين أنه توجد شعوب عديدة ليس بها أدني نزعة دينية. وطالما سمعت وقرأت أن الدين أو التدين هو الصفة المميزة للنوع الانساني، وهو الحد الفاصل بينه وبين بقية الحيوانات . فلا تخلو الحال من أحد أمرين : إما ان القائلين بهذا القول علي خطأ . وإما أنه يوجد عدد كبير من الناس لا شيء يميزهم من الحيوانات »

وقال العلامة بروكا الشهير « لا ريب عندى فى أنه توجد شعوب كثيرة من النوع الانساني خالية من كل معتقد وعبادة ومن كل فكرة دينية »

وهنا استشهد بخنر بما قال السر جون لوبك ودروين وغيرهما عن وجود قبائل كثيرة لا تعتقد أي دين مما أشرنا اليه ثم قال :

« وأبلغ من هذا كله ان جميع اتباع كونفوشيوس لا دين لهم مطلقاً فهم لا يعتقدون فى إله ولا يؤمنون بخلود الروح . وليس ما يسمونه بدين كونفوشيوس سوى مذهب فلسفي عمراني أخلاقي نشره صاحبه وهو فيلسوف صيني قديم . فاتبعته الطبقة المتعلمة فى الصين وكثرة سكان اليابان »

واليك ملخص مذهب كونفوشيوس نقلا عن كتاب «الاطلال» للعلامة فولني صفحة ١٣٩:

الحقيقة هى أن كل ما فى الوجود وهم وخيال وظواهر باطلة . وليس التقمص الروحى إلا رمز إلي التقمص الجسمى المادى الحقيقي . لان مادة الجسم ـ مثلها مثل المواد التى فى الكون ـ لا تفنى بعد الموت بل تتحلل وتنتشر فى الارض والهواء وتدخل فى تراكيب أخري . وما الروح إلا القوة الحيوية التى تنتج من خواص مواد الجسم وتأثير أعضائه بعضها في البعض مما يجعله يتحرك ويحيا . أما القول بان هذه القوة الناتجة من تأثير الاعضاء وخواص المادة الملازمة لها والتى تولد منها وتنمو معها تبقى «أى تلك القوة» بعد موت الجسم لهو قول خيالي وهمى

خلقه تصورنا المخدوع. وما الله إلا مجموع القوي الطبيعية غير المنظورة المنتشرة في جميع أجزاء الكون والتي تحركه أو مجموع النواميس الطبيعية التي تديره

ولما كانت هذه النواميس الطبيعية في غاية الدقة وأغلبها خفي على الانسان برزت للناس كلغز لا يمكن حله فقالوا بوجوب الايمان بها بغير ادراكها وزعموا أنها فوق العقل البشرى

.. « إن الحكمة هي معرفة النواميس الطبيعية . وأن الفضيلة تقوم في اتباعها والشر والرذيلة في جهلها وعدم السير وراءها » انتهي كلام فولنى عن مذهب كنفوشيوس الذى يسمونه ديناً

هذا ويقول « ناصيف المنقبادى » إن هناك شعوباً لم تعرف عقيدة ما ، وإن من الشعوب التي لا تدين بدين ما بعض قبائل العرب القديمة فقد جاء في كتاب «مصادر الاسلام » ما نصه : والعرب الجاهلية أصناف ، فصنف أنكر الخالق والبعث وقال بالطبع المحي والدهر المفني يؤيد هذا ما ذكره القرآن عنهم في سورة الجاثية «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما نحن بمبعوثين »

عبادة الكواكب

عند « السيد عبد الرزاق الحسيني » من بغداد إن مظاهر الطبيعة وعجائب الكون قد وجهت نظر الانسان منذ نشأته إلي إكبارها وتعظيمها فأكبر العاصفة وارتعدت فرائصه للقوى الطبيعية ورأى في كل تلك المظاهر قوة مدركة وحياة خاصة فاستصغر قواه بجانبها ووجدها جديرة بالتعظيم والتقديس . ومن هنا نشأت فكرة العبادة لمظاهر الكون واستمر البشر يؤله ما يخاف منه وما تجهل كنهه أو يرى فيه شيئا غريبا حتى تطورت فكرة الدين بتطور البشر

وأصبحت المظاهر الطبيعية تنضوى قواها تحت قوي محصورة فى قوة واحدة فبعد أن كانت الريح العاصف والشمس المهجرة والنار المتأججة ، آلهة تعبد وأرباباً تطلب منها المساعدة والمعونة ، أصبحت تلك القوي ، متمثلة فى عدد من الكواكب السيارة وفي قوة تمثلها تلك الكواكب ، وتطورت هذه الفكرة فاصبح عدد الكواكب يتضاءل حتى لم يبق الا إله واحد وأصبح الخلاف فى صفاته بعد أن كان فى شركائه وأقرانه

ولكن على الرغم من هذه التطورات التى طرأت على العقيدة البشرية ، فان جذور تلك الاعتقادات ما تزال باقية وما يزال قسم من البشر يحتفظ بأصول العقائد الاولي وبصفات التفكير القديم ، قبل عصر الحضارات ومن هؤلاء الصابئة

جاء فى القرآن الكريم فى سورة البقرة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ـ الآية ـ » وقد ذهب المفسرون في تفسير كلمة « الصابئة » مذاهب شتى لا نري داعياً للبحث فيها . غير أننا نقول إن الصابئة الذين ذكرهم الله تعالي في هذه الآية الشريفة قد انقرضوا فاصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل

وذكر أصحاب كتب الملل والنحل نوعا من الصابئة دعوهم « الصابئة الحرانية » فظن البعض أن هؤلاء القوم من الصابئة الاقدمين ، وهذا وهم وضلال فقد ذكر أبن النديم في الصفحة الـ ٣٢٠ من فهرسته «طبعة أوربا» أن المأمون اجتاز في أواخر أيامه ديار مصر يريد غزو بلاد الروم فتلقاه الناس يدعون . وكان بينهم جماعة من الحرانية وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية وإرسال اللحى فانكر المأمون ذلك عليهم وسألهم هل هم من المسلمين أو اليهود أو النصارى فاجابوه بالسلب ، فسألهم هل لهم كتاب أو نبي ، فاجابوه سلبا ، فاراد قتلهم مشيراً إلى أنهم أصحاب الرأس في أيام والده الرشيد فاجابوه بأنهم يدفعون

الجزية ، فقال لهم أنتم كفرة ملاحدة والجزية تؤخذ ممن خالف الاسلام من أهل الاديان الذين ذكرهم الله في كتابه المجيد . وطلب اليهم أن ينتحلوا الاسلام دينا لهم أو ديناً آخر من الاديان التى جاء ذكرها في القرآن ، وأمهلهم الي عودته من غزو الروم . ويقول ابن النديم إن الحرانيين خافوا على حياتهم ، فأسلم بعضهم وقص البعض الآخر شعره وصاروا فى ولولة واضطراب وجاءوا شيخا من شيوخ حران يطلبون نجوة لهم وقدموا اليه النذور والدراهم فقال لهم : إذا عاد المأمون من رحلته وسألكم عن دينكم فقولوا له : نحن الصابئة والصابئة اسم لدين ذكره الله فى كتابه .

ويزيد ابن النديم على ما تقدم قائلا : إن المأمون مات في سفره « ٢١٨ هـ ـ ٨٣٣م » ولكن المسلمين عقبوا خطته حتى جعلوا الحراني يتظاهر بالاسلام . فاذا تزوج وولدت له امرأته ذكرا جعله مسلما ، وان جاءت اليه أنثى جعلها حرانية أو صابئة بالمعنى الذى أراده الشيخ الحراني لخلاصهم : وخلاصة قول ابن النديم أنه لم يكن في حران يوم اجتاز المأمون ديار مضر لغزو الروم صابئة وليست للحرانيين الذين خرجوا لاستقباله فجري ماجرى ، لهم أية صلة بالصابئة . وهذا هو المراد عندنا

وقد ذكر المسيو هنرى بونيون في كتابه تحت عنوان « الفرقة الدستائية » وهي المندائية التى اشتهر بها الصابئة الحاليون ما مضمونه : إن صاحب هذه الفرقة كان متسولا وقد جاء من بلاد ما بين الزابين « يريد الزاب الاكبر والزاب الاصغر وهما من أنهار العراق المعروفة » الي ميسان « يريد جنوبي العراق » وكان مسيحيا اسمه « دبدا » واسم أمه « أم كشطا » ثم توطن ضفاف نهر القاردن فى جنوبي البصرة الحالية . وأسس ديانة جديدة مأخوذاً معظمها من المارقيونيين

والمانويين والكنتيين وغيرها من الفرق الصابئية القديمة ثم توسعت هذه الطائفة على مر السنين وسموا بالصابئة أى المغتسلة ، لأن جميع طقوسهم الدينية لا تتم إلا بالارتماس فى الماء الجاري اه

تعتقد الصابئة أن المخلوق الاول لله كان روحانياً يدعى « هي قدمايا » أي الحي القديم ، وأن الله خلقه وخلق معه عوالم كثيرة مملوءة بالنفوس المقدسة . ثم خلق الحى الثاني أو المخلوق الثانى وهو « هي تنيانى » وخلق معه كذلك عوامل مقدسة لا تحصي ثم خلق المخلوق الثالث وهو « هي تليثاني » وخلق معه ما خلق مع سابقيه ، وأن هذه النفوس تنقسم قسمين « أنزى » أي عوام و « ملكى » أى ملوك . ثم خلق عوالم سبعة تدعى « آلمي دهشوخا » أى عوالم الظلام وهى تستمد نورها من الشمس وسكانها عوام وملوك أيضاً وأرضنا من جملتها

أما هيئة الأرض فيرونها بشكل مربع وأنها ثابتة غير متحركة وهي مقامة على هواءين أحدهما خارجى والآخر داخلى وتحت الأرض ماء انبسطت عليه وأما السماء فيعتقدون أنها مكونة من سبع طبقات وأن الشمس تقع في الطبقة الرابعة والقمر في السابعة . ويرون أن الأرض والسماء مركبتان من مادتين هما : النار والماء وكذلك الكائنات الحية فهى كلها مركبة من هذين العنصرين . ويعتقدون أن الله بعد أن أتم خلق الأرض ، أنزلت الملائكة من عالم الانوار الذى يسمونه « آبي دهورو » بذوراً للاشجار وفتحت طريقاً للهواء ولماء الحياة وفتحت طريقا آخر للنور تستمد منه الشمس أشعتها لتنير بقية الكواكب بالواسطة

يسمى الصابئة آدم « كوره قدمايه » ويقولون أن الله أرسل جبرائيل ويسمونه « إبتاهيل » إلي الأرض ليخلق آدم على صورته فخلقه على صورته من التراب وخلق من ضلعه الايسر حواء ثم أنزل الروح في جسمى آدم وزوجته

وعلم الملائكة آدم كل ما فى الارض ، ثم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس ، ويسمونه « هاديبشة » قائلا خلقتني من نار وخلقته من تراب فكيف أسجد له ؟ فطرده الله من الجنة ولعنه

وضع الصابئة للعالم تاريخاً قدره ٥٨٧٣٠٩٥ سنة أسندوه الي أساطير

وفي فكرة الخير والشر : تري الصابئة وتعتقد أن الخير والشر موجودان من قبل الانسان ، ويحدثان بفعله وأن إرادة الانسان الجزئية واختياره المطلق هو الذي يجعله مسئولا أمام الله وهم يرون فوق ذلك أن الله بين للانسان طريق الخير وطريق الشر ، فله الحرية المطلقة في اتيان ماشاء ونبذ ما يشاء من دون معارض يعارضه .

تعتقد الصابئة أن الموت انتقال لا اندثار ، فالروح ، بعد أن تخرج من الجسد ، لا تفنى ولا تنعدم ، انما تنتقل من عالم لآخر حتى تصل إلي عالم الانوار . وتعتقد أيضاً بأن الروح لا تطهر اذا لم تخرج من بدن طاهر ، ولهذا وجب غسل الميت وتكفينه ساعة احتضاره لتخرج الروح من جسده وهو طاهر . فاذا مات الميت نجس وحرم مسه . ومن مات فجأة أى بلا غسل وتكفين عد كافراً ، والبكاء والعويل محرمان على الميت فان كل دمعة تذرفها العين على الفقيد تكون نهراً كبيراً في طريقه يعجزه عن قطعه

فاذا مات الميت استقبل روحه ملكان من نقلة الارواح فيحاسبانه على عمله فى دنياه فان كان حسناً فان روحه تذهب الى عالم الانوار رأساً وان كان سيئاً تبقي الروح فى العذاب حتى تطهر

أما صلاة الصابئة فهي وضع أولي للصلاة ثلاث مرات وقوفاً وركوعاً وجلوساً فى غير سجود وأذكار ولا يصومون . وانما لا يأكلون اللحم ٣٦ يوماً ولهم عادات فى الزواج والجنازة والذبح . ولكهنتهم فى ذلك نفوذ مطلق

رأى المؤلف

أوردنا فى ما تقدم الكثير من آراء العلماء والفلاسفة في «الدين والتأليه» لكى يقف القاريء على أصل هـذه الفكرة التى رافقت الانسان قبل عصر التاريخ والحضارات وبعدهما إلى اليوم.

وعندنا أن الانسان البدائى قبل أن يعرف شيئاً اسمه « الدين » أو «الاله» كان يخشي القوة ، سواء أكانت ممثلة فى رجل قوي مسيطر أو زعيم نافذ الكلمة أم رب أسرة محترم المقام مهيب الطلعة أم فى حيوان أو وحش أم فى شيء فى الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والماء أم فى شبح أو حلم ، ومن هذه الخشية نشأ الاحترام والاجلال والتهيب فالحب فالتقديس

كان الانسان الأول دائب النظر إلي السماء، مأخوذاً بحرارة الشمس وكسوفها وضوء القمر وخسوفه والنجوم ونورها وبالعواصف والسحب والصواعق والبرق والأمطار والبرد — بفتح الراء —

وعندنا أن الانسان البدائي كان يعبد ما يعبد ويقدس ما يقدس تبعاً للاحداث العارضة وأنه كان ينتقل من عبادة إلى أخرى في سرعة كلما كان الملقن أو الحدث قوياً ، أو كلما حط عصاه في بلد جديد ذي عبادة أخرى

وكلما ارتقت الحياة الاجتماعية أحس الاقوياء المسيطرون والمفكرون بحاجة هذا المجتمع الي رابطة روحية كما أحس المجتمع ذاته بحاجة الي هذه الرابطة. ومن هنا كان المجال متسعاً لنشر الدين والتفنن فى مذاهبه فتعددت الاديان والآلهة وتطورت إلى أن ظهرت الديانات الكبري فى الحضارات القديمة «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم — قرآن كريم »